

الباب الأول  
الدعوة إلى الله تعالى  
في المجالات النظرية



## الفصل الأول

### الوضع العام قبل بعثة رسول الله

شاعت في القرنين السادس والسابع للميلاد خرافات وقضايا عجيبة ، وكان وراء ذلك كله بعض الحكام المستبدّين كآل ساسان في بلاد فارس ، حتى وصلت قناعات الناس إلى القول : إن الإمبراطور له الحق بأن يفعل ما يشاء لأنه الأب الوحيد للشعب ، وبالتالي فالدماء التي تجري في عروقه هي من دماء الإله !!

ففي بلاد فارس كانوا يقَدِّسون النار ويعبدون الشمس ، وساءت أحوالهم السياسية والاقتصادية إلى درجة أن الحاكم أصبح يُخاطب بكلمة الإله ، وأن له من الحقوق ما لا يصح لغيره ، وأن كرسي الحكم أصبح أمراً وراثياً ، فإذا لم يجدوا ذكراً للملك ورثوا ابنته ، مثال ذلك بوران بنت كسرى .

أما الشعب المسكين البائس فمهمته تقديم الضرائب من أجل حياة الترف والأبهة والعظمة ؛ التي يعيشها الملك وحاشيته ، إلى درجة لا مثيل لها .

لذا فسد الشعب وتزعزعت أخلاقه حتى إن ( يزدجرد الثاني ) تزوج ابنته ، و( بهرام جوبين ) تزوج أخته!!

وهكذا تخبط الناس في البلاد ، فتارة دعا ( ماني ) إلى الزردشتية ، وشجع على تحريم النكاح ، وتارة تطرف ( مزدك ) فدعا إلى الإباحية في الأموال والنساء! فقام الفقراء بالثورات ضد الأغنياء ، وكانت النتيجة الخراب والدمار والفساد .

وأما في بلاد الرومان : فلم يكن الحال أحسن من بلاد الفرس ، بحيث من يستولي على زمام الحكم يعتبر إلهاً ، لذلك كان الناس يسجدون له متمنين رضاه!

وعاش الشعب حالة التناقض ، فهناك من يدعو للعودة إلى الرهبانية وترك الملذات والمتع ، وهناك من يحرص على اللهو واللعب والترف والمجاملات .

وفشت الرشوة والخيانة في المجتمع ، وأصبح العدل كالسلعة يُعرض للبيع والشراء ، وزادت الضرائب والمكوس مما زاد من الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي .

وأما الهند والصين فكان الوضع العام سيئاً ، ففي الهند تعددت الآلهة إلى درجة عبادة نهر الغانج ، أو عبادة أحد

الجبال ، أو عبادة الذهب والفضة ! وانتشرت الأساطير  
والخرافات والعقائد الفاسدة ، واهتم الناس بنصب التماثيل لـ  
( بوذا ) وأعوانه .

بل وصل الأمر إلى أن عبد الرجال النساء العاريات ،  
وعبدت النساء الرجال العراة ، ولذلك انتشرت الخلاعة وأمور  
الجنس ، حتى أصبحت المرأة في وضع لا تحسد عليه ، فهي  
كالأمة تُباع وتُشترى ، وإذا مات زوجها صارت كالموءودة  
لا تتزوج ولا تُحترم !

وفي الصين عاش الناس عيشة تخبط ، فهناك أتباع  
( كونفوشيوس ) الذين اهتموا بأمور الدنيا فقط ، وأنكروا  
وجود إله معين ، وهناك أتباع ( لاوتسو ) الذين اهتموا فقط  
بالزهد والتقشف والرهبانية وما إلى هنالك .

وأما أوروبا فقد خيم عليها ظلام ليل دامس ، فانتشرت  
الأمية والرهبانية والتخلف ، إلى حدّ عقدوا مؤتمراً محوره :  
هل المرأة حيوان أم إنسان ؟ !

وأما اليهود فانتشرت بينهم عادات فاسدة كأكل أموال  
الناس بالباطل ، وحب المال ، والتعامل بالربا وغير ذلك .

وأما العرب - سكان الجزيرة العربية - : فبعد أن كانوا

يدينون بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، أصبحوا  
يشركون بالله عبادة الأصنام التي نحتوها بأيديهم!

وتفاقم الأمر إلى درجة أنهم قَدَموا القرابين للأصنام ،  
وبنوا لها بيوت العبادة - الطواغيت - وعظموها كتعظيم  
الكعبة ، وكان منها : مئة واللات والعزى وسعد والأقيصر .

قال ابن الكلبي في كتابه الأصنام : وروي عن أبي رجاء  
العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير  
منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا جُثوةً  
من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به!

ثم قال : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة  
أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث أسافٍ  
لقدِّره ، وإذا ارتحل تركه!!

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - بعد إسلامه - كان  
يقول : إني إذا ذكرت الجاهلية ضحكت ، قيل : ولم ذلك ؟  
قال : كان لي إله من تمر ، فإذا عضني الجوع التفث ذات  
اليمين وذات الشمال ، فإذا لم أجد من يراني ، أكلت ربي!!

أما تصوّراتهم عن الملائكة والجن فكانت مشوشة ، حيث  
الملائكة بنات الله ، والجن واسطة لهم عند الله ، كما أخبر الله

تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .

وأنكروا البعث بعد الموت : ﴿ وَقَالُوا آهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا آهِنًا  
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾

[الجاثية : ٢٤]

وانتشرت بينهم اعتقادات الكهانة والتنجيم والعرافة  
والسحر والشعوذة والطيرة ، وتعاطوا أنواع الخمر ،  
ومارسوا الميسر والقمار ، وطاقفوا بالبيت الحرام عراة !!

أما الأمور الاجتماعية : فانتشر الزنى والخليلات ،  
وظلمت المرأة إلى حدّ عجيب ، وأريقَت الدماء نتيجة حروب  
طاحنة من أجل أتفه الأسباب ، مثلها حرب البسوس .

وأكثر البلاد ازدهاراً كانت مكة ويشرب ، حيث البيت  
الحرام محطّ أنظار الزائرين ، وحيث الأسواق التجارية ،  
ومكانة قريش بينهم ، والمباريات الأدبية ، كما كان يحدث في  
سوق عكاظ وغيره .

إذاً : كان العالم كله بحاجة ماسّة إلى المنقذ ، الذي يأتي  
بمنهاج ربّاني بعيد عن تخبطات الأمور الوضعية ، فكان أن  
بعث الله النبي ﷺ لينقذ الناس من تلكم الأزمان ، وليخرج

العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان ، فكان  
الرحمة والنور والهداية للناس جميعاً : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ  
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ  
عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ  
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قَدْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ  
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٧-١٥٨] .

\* \* \*

## الفصل الثاني

### الأدلة الدامغة على عالمية الدعوة إلى الله

وهكذا أرسل الله تعالى خاتم الأنبياء محمداً ﷺ ، فكان نوراً للناس كافة ، وحمل معه رسالة السماء إلى الأرض ؛ وهي القرآن الكريم ، وهو النور للعالمين ، وفصلت الشريعة الإسلامية جزئيات الأمور ، وكانت نوراً للناس أجمعين ، ففي أي زمان وأي مكان من أتبع هذه الأنوار فاز في الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنها عاش في ظلام حالك ، ثم انقلب إلى جهنم وساءت مصيراً ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] .

وهكذا فليست الدعوة إلى الله بدعاً في الإسلام الخاتم ، إنما هي امتداد طبيعي لكل ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام ، لأن جميع ما في الشريعة الإسلامية يطابق فطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، بل عرّف علماؤنا الإسلام بأنه :

الانقياد والامتثال لأمر الأمر بلا اعتراض .

وبناءً على هذا ، فكل ما في الكون من نباتٍ وأجرام  
وإنسان وحيوان وما إلى هنالك سيسجد لله رب العالمين ، كما  
قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد :  
١٥] . ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾  
[الإسراء : ٤٤] . ﴿ وَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا  
وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

لكن من رضي بالله رباً فأطاعه دون إكراه ، واتبع نبياً من  
أنبياء الله كان هو المسلم الحقيقي ، دليل ذلك قوله تعالى :  
﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنْ أَلَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا  
تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾  
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي  
مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٩-٣١] .

وقوله : ﴿ ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى  
اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ  
مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

وأما إذا أطلقت الكلمة ، فإنها تعني من اتبع دين رسول الله

محمد ﷺ ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

لذلك فما جاء في الإسلام يوافق الفطرة الإنسانية ، ويواكب حركة الدعوة في مناهج أنبياء الله ورسله ، والذين تحلقوا حول مائدة واحدة ، ونهلوا من نبع التوحيد الواحد ، فكان الإسلام بحق هو الدعوة العالمية أولاً وأخيراً ، مصداق ذلك قوله تعالى في معرض حديثه عن الدين الواحد لكل العالمين : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

أي أن الإسلام هو خلاصة ما سبقه من أديان وشرائع ، قال الله تعالى عن الأنبياء السابقين : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ آقَدَةٌ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ إِنْ كَفَرُوا بِهَا هُوَ لَآءٍ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

إذاً : ما الأدلة الوافية على عالمية الدعوة إلى الله تعالى ؟!  
في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وفي الكتب  
السابقة أدلة وافية على عالمية الدعوة إلى الله تعالى ، وكذلك  
في غالبية أمور الفقه والشريعة الإسلامية أدلة كافية على عالمية  
الدعوة إلى الله ، ولعل أهمها - وبشكل مختصر - :

### ١- في الكتب السماوية السابقة :

ما من نبيّ أو رسول إلا بلغ قومه بأن إذا جاءكم خاتم  
الأنبياء محمد ﷺ فاتبعوه فهو الأساس وهو الخاتم ، ولذلك  
كانوا يعرفون مجيء رسول الله ويطرقونه ، مصداق ذلك  
قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ  
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقد جمع كتاب التاريخ والسير بعض هذه البشارات  
والصفات التي وردت في الكتب السماوية السابقة ، والتي  
تختص بالنبي العالمي ﷺ ، ومنها :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أمر إبراهيم عليه  
السلام بإخراج هاجر حُمّل على البراق ، فكان لا يمرُّ بأرض  
عذبةٍ سهلةٍ إلا قال : انزل ها هنا يا جبريل ، فيقول : لا ،  
حتى أتى مكة ، فقال جبريل : انزل يا إبراهيم ، قال : حيث

لا ضرع ولا زرع؟ قال : نعم ها هنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا<sup>(١)</sup> .

وقال وهب بن منبه في قصة ما أوحى الله إلى داود في الزبور :

يا داود ، إنه سيأتي من بعدك نبيّ يسمي : أحمد ومحمداً ، صادقاً سيّداً ، لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبني أبداً ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وأمه مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتوني يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهّروا لي لكل صلاة ، كما افترضت على الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بال غسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم .

يا داود ، فإني فضّلت محمداً وأمه على الأمم كلها : أعطيتهم ست خصالٍ لم أعطاها غيرهم من الأمم : لا أوأخذهم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٦٣/١ .

بالخطأ والنسيان ، وكل ذنبٍ ركبوه على غير عمدٍ إذا استغفروني منه غفرته لهم ، وما قدّموا لآخرتهم من شيء طيبةً به أنفسهم عجلته لهم أضعافاً مضاعفةً ، ولهم في المدخور عندي أضعافاً مضاعفةً وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب في البلياء إذا صبروا وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم ، فإما أن يروه عاجلاً ، وإما أن أصرف عنهم سوءاً ، وإما أن أدخره لهم في الآخرة .

يا داود ، من لقيني من أمة محمدٍ يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها فهو معي في جنتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذب محمداً ، وكذب بما جاء به ، واستهزأ بكتابي صببتُ عليه في قبره العذاب صباحاً ، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره ، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار<sup>(١)</sup> .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : أوحى الله إلى يعقوب أنني أبعث من ذريتك ملوكاً وأنبياء ، حتى أبعث النبيّ الحرميّ

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام البيهقي :

الذي تبني أمته هيكل بيت المقدس ، وهو خاتم الأنبياء ،  
واسمه أحمد<sup>(١)</sup> .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن  
العاص رضي الله عنهما ، قلت : أخبرني عن صفة  
رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف  
في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك  
شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً<sup>(٢)</sup> للأمين ، أنت عبدي  
ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ،  
ولا سخاب<sup>(٣)</sup> في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن  
يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن  
يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً ، وأذاناً صمّاً ،  
وقلوباً غلفاً<sup>(٤)</sup> .

وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :  
أوحى الله إليّ بعض أنبياء بني إسرائيل : اشتد غضبي عليكم  
من أجل ما ضيعت من أمري ، فإني حلفت لا يأتكم روح

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٦٣/١ .

(٢) الحرز : هو المكان المنيع الذي يلجأ إليه .

(٣) السخب : الصياح .

(٤) صحيح البخاري : ١٦٩/٦ ، مسند الإمام أحمد : ١٧٤/٢ .

القدس حتى أبعث النبي الأمي من أرض العرب الذي يأتيه روح  
القدس<sup>(١)</sup> .

وعن سهل مولى عتيبة أنه كان نصرانياً من أهل مريس ،  
وأنه كان يتيماً في حجر أمه وعمه ، وأنه كان يقرأ الإنجيل ،  
قال : فأخذت مصحفاً لعمتي فقراءته حتى مرّت بي ورقة ،  
فأنكرت كتابتها حين مرّت بي ومسستها بيدي ، قال : فنظرت  
فإذا فصول<sup>(٢)</sup> الورقة ملصقٌ بغراء ، قال : ففتقتها ، فوجدت  
فيها نعت محمد ﷺ : أنه لا قصيرٌ ولا طويلٌ ، أبيض ، ذو  
ضفرتين ، بين كتفيه خاتم ، يكثر الاحتباء ، ولا يقبل  
الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحتلب الشاة ، ويلبس  
قميصاً مرقوعاً ، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر ، وهو يفعل  
ذلك ، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد .

قال سهل : فلما انتهيت إلى هذا من ذكر محمد ﷺ جاء  
عمي ، فلما رأى الورقة ضربني وقال : مالك وفتح هذه الورقة  
وقراءتها ؟

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٦٧/١ .

(٢) فصول : أجزاء .

فقلت : فيها نعت النبي ﷺ أحمد ، فقال : إنه لم يأت بعد<sup>(١)</sup> .

## ٢- في القرآن الكريم والسنة الشريفة :

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على سيدنا رسول الله ﷺ ، لكنه لم يختص فئة معينة ، ولا جنساً محدداً ، ولا أمة بحد ذاتها ، إنما كان الهداية والنور للعالمين أجمعين ، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وكلمة العالمين تشمل على جميع العوالم وفي كل مكان وزمان ، وهذه هي العالمية الحقة .

قال تعالى مخاطباً النبي ﷺ :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) **﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧) وَلَنَعْلَمَنَّ بِأَمْرٍ بَعْدَ حِينٍ** ﴿ [ص : ٨٦-٨٨] .

وأكد ذلك في معرض حديثه عن مؤامرات المشركين لإسقاط موقع الرسول ﷺ وإرباك الساحة كلها ، وذلك من جراء استهزائهم وما إلى هنالك : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ

(١) طبقات ابن سعد : ١/ ٣٦٣ .

بِأَبْصَرِهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

[القلم : ٥١-٥٢]

وفي معرض نفي الله سبحانه وتعالى الجنون عن رسوله ﷺ ، يؤكد البيان الإلهي على أن القرآن الكريم ليس من كتابة محمد ﷺ إنما هو كلام الله المنزل بوساطة جبريل .

ثم يخاطب أهل مكة - ومن سار على دربهم - ليقول لهم : ففي أي طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن ، واتهامكم له بالسحر والشعر والكهانة وما إلى هنالك ؟ وما القرآن الكريم إلا موعظة وتذكرة لجميع خلق الله ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَتَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير : ٢٥-٢٩] .

وبالتالي فهذه العالمية في الدعوة رافقت تاريخ الدعوة من أوله ، فمنذ بدأ تنزل القرآن العالمي على الرسول العالمي ﷺ ، كانت الإشارات توحى أن هذه الدعوة ليست بالأمر السهل ، إنما هي حمل ثقيل ، قال الله تعالى في ثالث سور القرآن - بالتنزيل - بعد الحديث عن الدورة التدريبية ، ليكون الرسول ﷺ على استعداد كامل : ﴿ يَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ ﴿١﴾ قُرْآنًا لَّيْلًا

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧﴾ نَصَفَهُ، أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٨﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٩﴾  
 إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿١٠﴾ [المزمل : ٥-١] .

وفي السورة الرابعة - بالتنزيل - جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بأن يشتم عن سواعد الجدّ ، ويتحمّل مشاق الدعوة إلى الله تعالى ، لأنه هو النذير ، لا لأهل مكة فحسب ، ولا لأهل الجزيرة العربية ، وإنما هو النذير لجميع البشر ، قال تعالى يخاطب النبي ﷺ وهو في بدايات العهد المكي : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ﴿١﴾ قُرْآنٍ ذِكْرٌ ﴾ [المدثر : ١-٢] .

وفي أواسط السورة يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا لَآئِحْدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُوا أَوْ يَخْشَوْا ﴾ [المدثر : ٣٥-٣٧] .

وفي هذا وغيره دليل واضح على أن الدعوة إلى الله تعالى حملت طابع العالمية، ومنذ الفترات الأولى التي وُجدت فيها .  
 أي أن القرآن الكريم كله - في أحكامه وغاياته ، في مناهجه وشموله ، في تحذّيه وبياناته - يحمل صفة العالمية ، ولذلك إذا استعرض الإنسان آيات القرآن الكريم رأى الكثير منها يحمل صفات العالمية ، من خطابٍ للناس جميعاً ، ومن خطابٍ لبني آدم ، ومن خطابٍ للبشر ، ولنضرب بعض الأمثلة :

في الخطاب للعباد جميعاً يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ويقول تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩-٥٠] .

ويقول تعالى : ﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا بِإِنِّي أَنزَلْتُ الذِّكْرَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

وتارة يكون الخطاب للناس جميعاً ، وفيه الدلالة الواضحة على عالمية القرآن والنبى ﷺ ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُمِيتُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا : ٢٨] .

كل ذلك يدلنا على عالمية القرآن الكريم وعالمية رسول الله ﷺ ، لأن الله لم يقل : لقد أرسلناك للعرب ، ولم يقل : لقد أرسلناك للبشر البيض أو السود فقط ، إنما الحديث

القرآني الواضح ، أن الله أرسله للبشر أجمعين ، فمن اتبع  
دعوته فاز في الدنيا والآخرة ، ومن سار على غير نهجه شقي  
وتعس ، ذلك لأن الله ختم الكتب السماوية بالقرآن ، ليكون  
الكتاب الأخير والعالمي ، وكذلك ختم الرسل والأنبياء  
بمحمد ﷺ ، ليكون الرسول الخاتم والعالمي ، قال تعالى :  
﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ  
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ  
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨-٢٠] .

وتارة يكون الخطاب العالمي القرآني يتمثل بالتوجه لجميع  
الخلق أو جميع بني آدم ، وذلك عن طريق استخدام كلمة  
الإنسان ، وهي لا تدل على الفرد الواحد ، إنما على كل من  
يحمل هذه الصفة ، وهي الإنسانية ، مثال ذلك قوله تعالى :  
﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ  
لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦-٨] .

وتارة يأتي القرآن الكريم بمصطلح ( أهل القرى ) ويعني

بذلك كل من يجتمع في هذا المكان ، أي كل الناس ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

[الأعراف : ٩٧-٩٩]

وتارة يحمل الخطاب الإلهي مصطلح ( الأمة أو الأمم ) ليدل على عالمية القرآن والرسول من حيث إرسالها للأمم كلها دون تمييز بين شعب وآخر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود : ١١٨-١١٩] .

قال الحافظ ابن كثير ( ت : ٧٧٤ هـ ) رحمه الله تعالى في معرض تفسير هذه الآيات :

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] . وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] أي : ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم

وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدى ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضاً ، والمشهور الصحيح الأول .

وقوله : ﴿إلا من رحم ربك﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية ، كما في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً : « إن اليهود افتقرت على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم في مستدرکه بهذه الزيادة ، وقال عطاء : ( ولا يزالون مختلفين ) يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني الحنيفية ، وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وقوله : ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه : وللاختلاف خلقهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس رضي الله عنهما : خلقهم فريقين ، كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٥] . وقيل : للرحمة خلقهم ، قال ابن وهب : أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثر ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما ، فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا ، فقال طاوس : كذبت ، فقال : أليس الله يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُُونَ مُخْلِيفِينَ ﴾ <sup>(١١٨)</sup> إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] قال : لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة ، كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ، ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقيل : بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُُونَ مُخْلِيفِينَ ﴾ <sup>(١١٨)</sup> إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] قال : الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف ، فقيل له : لذلك خلقهم ، قال : خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لعذابه . وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش .

وقال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٧] إِلَّا مَنْ رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ [هود : ١١٨-١١٩] قال : فريق في الجنة وفريق في السعير ، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيدة الفراء ، وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : للرحمة ، وقال قوم : للاختلاف ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس ، وله الحجّة البالغة ، والحكمة التامة .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء ، وقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة ،

وأما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك «(١) .

وتارة يأتي الحديث عن عالمية الرسالة عن طريق استخدام مصطلح ﴿الأولين والآخرين﴾ كما في قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالِّينَ الْمُكْذِبِينَ ﴿٥١﴾ لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوَىٰ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْغَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا مِنْ شَرِبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَلَتْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الراعدة : ٤٩-٥٧] .

وتارة يستدل القرآن عن عالمية الرسالة وخاتم الرسل عليه وآله الصلاة والسلام باستخدام مصطلح ﴿الإنس والجن﴾ ، كما في قوله تعالى : ﴿وَذَكَرْنَا الْذِكْرَ لِنَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٥-٥٨] .

وتارة يستخدم البيان الإلهي مصطلح (العالمين) ليدل على أن الحديث الدعوي للقرآن والسنة لا يتوجه إلى فئة أو أمة أو شعب فقط ، إنما الحديث عام وعالمي ، مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٦-٥٨٧ .

لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ [الفرقان : ٢-١] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ [الكهف : ٢-١] . وقال هاهنا : ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ نزل فعل من التكرار والتكثُر كقوله : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] . لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ، كما قال في أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ [الفرقان : ٣٣-٣٢] . ولهذا سماه هاهنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغني والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿عَلَىٰ عِبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء ، فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] .

وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إلى الله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن : ١٩] . وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] . وقوله : ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي : إنما خصّه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] . الذي جعله فرقاناً عظيماً ليخصّه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال : « إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي - فذكر منهن - : كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » . كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ فِي رَسُولٍ أَلَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذي يحيي ويميت ، وهكذا

قال هاهنا : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ، ثم أخبر أنه ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره<sup>(١)</sup> .

وهكذا نرى الآيات تلو الآيات ، والتي تدلّ على عالمية الدعوة إلى الله تعالى .

أختم ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُلَاقُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٣٩-٤٠] .

وعالمية الرسالة هي الميثاق الذي أخذه الله على جميع الرسل والأنبياء السابقين ، وملخصه أن يبلغ كل نبيّ أو رسول قومه بأن يؤمنوا بنبي آخر الزمان وينصروه ، لأنه النبي العالمي الخاتم ، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتِكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

(١) تفسير القرآن العظيم : ١٣٣/٥ - ١٣٤ .

لَمَّا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي  
 قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ  
 ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ  
 أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ  
 يُرْجَعُونَ ﴿آل عمران : ٨١-٨٣﴾ .

أما الأدلة على عالمية القرآن والسنة من فم من لا ينطق عن  
 الهوى ﷺ فهي كثيرة جداً ، ولا يمكن حصرها في مثل هذا  
 الكتيب ، لكن يكفي نقل بعضها من باب التذكير :

في سنن الترمذي ومسند أحمد بالسند المتصل إلى  
 الطفيل بن أبي كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « مثلي في  
 النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع  
 لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه  
 ويقولون : لو تمّ موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك  
 اللبنة » .

وفي مسند أحمد بالسند المتصل إلى أنس بن مالك  
 رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة  
 قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي » .

وفي المسند بالسند المتصل إلى عبد الله بن ثابت قال :

جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أمرت بأخ  
يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها  
عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن  
ثابت : قلت له : ألا ترى وجه رسول الله ؟ قال عمر : رضيت  
بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسري عن  
النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى  
عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من  
الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وفي المسند بالسند المتصل إلى تميم الداري رضي الله عنه  
قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليلغن هذا الأمر ما بلغ  
الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا  
الدين يعز عزيزاً أو يذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام وذللاً  
يذل الله به الكفر » .

وفي المسند بالسند المتصل إلى النواس بن سمعان قال :  
قال رسول الله ﷺ : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى  
جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور  
مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا  
الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ،  
فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك

لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ،  
والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك  
الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق  
الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم .

وفي المسند أن النبي ﷺ خطب ذات اليوم فقال : « أيما  
رجل سبته في غضبي أو لعنته فإنما أنا رجل من ولد آدم  
أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين ،  
فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة » .

فصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، الذي  
ختم الله به الرسالات ، وجعل رسالته هي الرسالة العامة  
العالمية ، فمن سار على نهج القرآن والسنة فاز في الدنيا  
والآخرة .

وهذا أمر واضح وصريح ، حيث إن جميع الأنبياء والرسول  
السابقين أرسل كل واحد منهم لقومه خاصة ، مصداق ذلك  
قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ  
يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح : ١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ  
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وهكذا الجميع عليهم السلام ، أما رسول الله ﷺ فصريح الآيات أنه أرسل للناس كافة ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا : ٢٨] .

وهذه خاصية انفرد بها رسول الله ﷺ عن بقية الأنبياء (١) ، ليكون الرحمة المهداة لجميع الخلق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

### ٣- الشريعة الإسلامية عالمية عامة :

الشرع ، والشريعة ، والشرعة في اللغة : الطريق الظاهر الذي يوصل منه إلى الماء ، يقال : شرعت الإبل شرعاً وشروعاً : إذا وردت الماء .

والشرع في الاصطلاح : ما سنّه الله لعباده من الدين وأمرهم باتباعه (٢) .

---

(١) للتوسع يراجع : حديث القرآن الكريم عن خصوصيات سيد المرسلين ، للمؤلف : ٧٠-٨٦ .

(٢) روح المعاني للآلوسي : ٢٨٣/٤ .

وكل الشرائع السماوية من مصدر واحد ، وهو الله سبحانه  
وتعالى ، لذلك فهي متحدة بالأصول : كالوحدانية ،  
والإيمان بالبعث ، والحساب ، والجنة والنار .  
وقد تختلف عن بعضها في الأحكام الفرعية حسب اختلاف  
المكان والزمان والظروف .

مصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ  
نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا  
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

لكن ما يجب التركيز عليه هو أن الشريعة الخاتمة هي  
الشريعة الوحيدة الكاملة .

مصدق ذلك قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ  
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . فليس  
فيها نقص أو قصور ، وهي مستعدة للإجابة عن كل مشاكل  
الإنسان وأزماته ، وهي عامة تتصل بحاجيات الإنسان كلها ،  
من أمور دنيوية أو دينية ، ذلك لأنها لكل الناس ، لا يحددها  
حدود جغرافية ولا تاريخية ، إنما منذ أرسل الله نبينا  
محمدًا ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لذلك : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةَ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿آل عمران : ٨٥﴾ .

من هنا نفهم السرّ في عدم ورود العالمية للدعوة إلى الله تعالى في التوراة ، لأن التوراة جاءت خاصة لبني إسرائيل وكذلك موسى عليه السلام ، وكل نبيّ جاء إلى قومه خاصة وحمل لهم ما بلغه الله به ، أما الرسول العالمي الخاتم ، فهو الوحيد الذي وُصف بالعالمية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا : ٢٨] .

وهكذا تُعتبر الشريعة الإسلامية ناسخة لكل الشرائع التي قبلها ، ورحم الله الإمام ابن حزم ( ت : ٤٥٦ هـ ) عندما قال :

مسألة ( ١٠ ) - وأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله إلى جميع الإنس والجن كافرهم ومؤمنهم ، برهان ذلك : أنه عليه السلام أتى بهذا القرآن المنقول إلينا بآتم ما يكون من نقل التواتر ، وأنه دعا من خالفه إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا كلهم عن ذلك ، وأنه شق له القمر ، قال الله عز وجل : ﴿ أَفْتَرَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرِجٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُورُ ﴿٥١﴾ [القمر : ٥-١] .

وحنّ الجذع إذ فقدته حنيناً سمعه كل من حضره ، وهم جموع كثيرة ، ودعا اليهود إلى تمني الموت إن كانوا صادقين ، وأخبرهم أنهم لا يتمنونه فعجزوا كلهم عن تمنيه جهاراً ، ودعا النصارى إلى مباهلته فأبوا كلهم ، وهذان البرهانان المذكوران جميعاً في نص القرآن كما ذكر فيه تعجيزه جميع العرب عن أن يأتوا بمثله أولهم عن آخرهم ، ونبع لهم الماء من بين أصابعه ، وأطعم مئين من الناس من صاع شعير وجدي ، وأذعن ملوك اليمن والبحرين وعمان لأمره للآيات التي صحت عندهم عنه ، فنزلوا عن ملكهم كلهم طوعاً دون رهبة أصلاً ، ولا خوفاً من أن يغزوهم ولا برغبة رغبتهم بها بل كان فقيراً يتيماً ، وهناك قوم يدعون النبوة كصاحب صنعاء وكصاحب اليمامة كلاهما أقوى جيشاً وأوسع منه بلاداً ، فما التفت لهم أحد غير قومهما وكان هو أضعفهم جنداً وأضعفهم بلداً وأبعدهم من بلاد الملوك داراً ، فدعا الملوك والفرسان الذين قد ملؤوا جزيرة العرب - وهي بنحو شهرين في نحو ذلك - إلى إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإسقاط الفخر والتجبر والتزام التواضع والصبر للقصاص في النفس فما دونها من كل حقير أو رفيع ، دون أن يكون معه مال ولا عشيرة تنصره ، بل اتبعه كل

من اتبعه مذعناً لما بهرهم من آياته ، ولم يأخذ قط بلدة عنوة  
وغلبة إلا خبير ومكة فقط ، وفي القرآن العظيم : ﴿ يَتَأْتِيهَا  
النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقال  
تعالى : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] . وقال  
تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا  
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ  
وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ  
فَكَانُوا لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥-١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ عِوَاذَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي  
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

مسألة ( ١١ ) - نسخ عز وجل بملته كل ملّة ، وألزم أهل  
الأرض جنّهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعثه بها ولا يقبل من  
أحد سواها ، وأنه عليه السلام خاتم النبيين لا نبي بعده ،  
برهان ذلك : قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ  
وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور نا وهب بن ميسرة ثنا  
محمد بن وضاح نا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا عبد الله بن إدريس  
عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال :

رسول الله ﷺ : « إن النبوة والرسالة قد انقطعت ، فجزع الناس ، فقال : قد بقيت مبشرات وهنّ جزء من النبوة »<sup>(١)</sup> .  
ونسخ الشريعة الخاتمة للشرائع السابقة تعزّزه عدّة أمور أهمها :

أن الكتب السابقة قد طالتها يد التزوير والتحريف أو الفناء ، ولم يبق إلا القرآن الكريم كما أنزله الله على قلب المصطفى ﷺ ، كذلك خصوصية كل نبي لأمة ، بينما عالمية وعامة الرسول الخاتم في دعوته إلى الله تعالى .

إذاً : القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين على قلب النبيّ الأمين ، وكل الناس عاجزون عن الإتيان بمثله أو شبيهه به ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وفي القرآن حلول لمشاكل الناس قديماً وحديثاً ، كما أخبر النبي ﷺ : « فيه نبؤكم وخبر من قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يتخلقه طول الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل » وهذا شارح لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) المحلّى : ٨/١ - ٩ .

أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ [النحل : ٦٤] .

لذلك فلا حلّ أمام البشرية إلا بالعودة إلى منهج القرآن الكريم ، حيث الطمأنينة والسعادة والحياة الرغيدة في طياته ، كما قال تعالى :

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ [طه : ١-٩] .

وهكذا سار القرآن مع الإنسان خطوة خطوة يدهه على الطريق القويم ويخرجه من ظلمات الحياة إلى نور وهدى الدين الحق ، وهذا الكلام قابل للتطبيق في كل وقت وحين ، وفيه الدليل الواضح على عالمية هذا الدين الحنيف .

فعندما يتحدث القرآن عن نشأة الإنسان يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

[الإنسان : ٢]

ثم يحدثنا عن تسلسل تطوره ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾  
 ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ  
 عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ  
 الْخَالِقِينَ ﴿ [المؤمنون : ١٢-١٤] .

ولما شاء الله تعالى لهذا الإنسان الخروج إلى هذه الدنيا ،  
 صور القرآن المسألة بدقة ، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ  
 أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
 وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

ثم كانت فترة الرضاعة ، فكان القرآن الكريم أكثر اعتناءً  
 بالإنسان في هذه الفترة ، حيث وضع الضوابط لفترة  
 الرضاعة ، قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ  
 كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا  
 تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ وَعَلَى  
 الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا  
 وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ  
 وَالْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ثم يتوجه القرآن الكريم إلى الآباء والأمهات ليوصيهم بأن  
 ينفقوا على الأولاد ، ويشعروهم بالمودة والألفة ، ليعيش

الجميع في ظلال الحياة الأسرية السعيدة ، قال الله تعالى :  
 ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٧] .

وقال تعالى : ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِن حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَلْيُنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِن أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَنَاتِكُمُ الْمُعْرِوفَ وَإِن تَعَاَسَ رِمْتُمْ فِسْرًا يُضَعُّ لَهَا أَجْرًا﴾ [الطلاق : ٦] .

وقال تعالى : ﴿وَمِن ءَايَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم : ٢١] .

حتى إذا حدثت خلافات في الحياة الزوجية ، فالقرآن الكريم يوجه الزوجين إلى الانضباط بقواعد التفاهم والمحبة والمعروف . قال تعالى :

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٩] .

وقال عز وجل : ﴿وَإِن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ٣٥] .

ولكيلا تحدث مشاكل جراء الاختلاف في أمور الميراث ،

حدّد القرآن القضية بدقة ، قال تعالى :

﴿ وَآتُوا أَيْلَانَكُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٢] .

وأكد القرآن على عدم المساس بالأيتام إلا بالتي هي أحسن ، وذلك بهدف ابتعاد الناس عن الظلم والإجحاف بحقوقهم ، قال تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

ثم يتوجه القرآن إلى ذوي الأمر بأن ينصحوا أولادهم ، ويربهم على الأخلاق والآداب الرفيعة ، من ذلك قوله تعالى في معرض حديثه عن موعظة لقمان الحكيم : ﴿ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَبْنِيْ أَقْرِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٦-١٩] .

وهكذا يؤكد على أمور العقيدة ، مثال ذلك قوله تعالى في معرض التأكيد على سلامة العقيدة ، عن طريق النظر والتأمل والتفكر في كل ما في الكون : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سُارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٦١] .

وهكذا في كل حركة من حركات الإنسان نرى القرآن الكريم قد واكب المسيرة واعظاً موجهها ناصحاً ، حتى يوصله إلى دار الأمان بإذن الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفِقُونَ وَالْمُنْفِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد: ١٢-١٣] .

فالبركة في القرآن ، فمن أراد الحياة الهادئة السعيدة فعليه اتباع منهج القرآن ، والتأمل فيه ، والاسترشاد بهديه ، ففيه أن يجد الناس حلاً سريعاً لكل مشاكلهم إذا التزموا بالقرآن والسنة ، قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ [الإسراء : ٤٩] . لكن إن لم تعد المجتمعات إلى القرآن العالمي والنبي الخاتم العالمي والشريعة الإسلامية العالمية ، فهذا يعني الشقاء والنكد ، وهذه حقيقة نراها بأم أعيننا على ساحة الواقع العالمي المعاصر ، قال الله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] .

لأن المسألة ليست بهرجة وزينة في الدنيا ، إنما القضية محسومة ودقيقة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلْمَتٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رِيثًا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ [النور : ٣٩-٤٠] . فتراكم أنواع الضلالات على الكفار ، تجعل قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في ظلمات شديدة كثيفة ، إلى درجة أنهم لم يعودوا يستطيعون تمييز الحق من الباطل .

وما أكثر الظلمات المحيطة بالكفرة : فهناك ظلمات القول ، وهناك ظلمات العمل ، وهناك ظلمات الاعتقاد .

كل هذا يؤدي إلى إحباط أعمال الكفار في الدنيا والآخرة ، لأنها لا تعتمد على المحور الرئيسي للدعوة إلى الله تعالى ، وهو التوحيد المطلق ، وصدق الله بقوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف : ١٠٣-١٠٦] .

\* \* \*